نظامنا الاجتماعي

(٤) الاخلاق

ما أشد ارتباط أعمالنا بأخلاقنا . أليست الاعمال نتائج الاخلاق . لذلك كان حقًّا علينا أن ندبج كلمة في الاخلاق في دائرة نظامنا الاجتماعي بعد كلمتنا السابقة في الاعمال واسبابها فنقول :

الخلق ملكة في النفس يطرّد عنها صدور الافعال مع السهولة بدون حاجة الى التفكر والروية فان صدرت عنها الافعال المحمودة سميت خلقاً حسناً او فضيلة وإن صدرت عنها الاعمال القبيحة سميت خلقاً سيئاً او رذيلة . فقولنا يطرد عنها صدور الافعال يعلم منهُ ان الافعال الصادرة لحاجة عارضة لا يسمى مصدرها خلقاً فلا يقال للبخيل الذي سخا بماله لسبب ما عارض إن خلقه السخاء وانهُ سخي . كذلك تعلم من قولنا (مع السهولة بدون حاجة الى التفكر والروية) أن من يتكلف الكون عند الغضب مثلاً مع بذل الجهد لا يكون خلقه الحلم ولا يكون هو حليماً ولا تكون الشجاعة خلقاً الا اذا كانت راسخة في نفس من اتصف بها فلا يتأخر في موضع الاقدام ولا يقدم في موضع الاحجام والخلق الحسن أو الفضيلة عبارة عن الحد الوسط بين طرفين ذميمين هما الإفراط والتفريط كالسخاء فهو وسط بين التبذير والتقتير قال الله تعالى (والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) وقال أيضاً (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) كذلك الشجاعة فهي وسط بين التهوّر والجبن كذلك العفّة فهي وسط بين الشره والجمود وكذلك سائر الاخلاق فكلا طرفيها ذميم قال الخطابي البستي

ولا تغلُ في شيء من الامر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

ومعلوم ان تلك الصفات السابقة واشباهها لا تخرج عن كونها احوالاً إلى كونها ملكات إلا بكثرة تمرين النفس عليها وأخذها بها في مواقعها حتى تعتادها وتصير كأنها غريزة فيها — وإذا امعنت في النظر إلى الشجاعة وجدت خلال الانسان حميدها ومقيتها ترجع إلى ثلاث قوى

(١) القوة الناطقة أي المدركة وتسمى القوة الملكية أيضاً وهي القوة التي

يكون بها الفكر والتمييز والنظر فى حقائق الاشياء وخواصها

(٢) القوة الغضبية وتسمى السَّبُعية أو النَّمرية وهي القوة التى يكون بها الغضب والنجدة والاقدام على عظائم الامور والشوق إلى التسلط والترفع وانواع الكرامات

(٣) القوة الشهوية وهى التى تكون بها الشهوة إلى طلب الغذاء ولذاذات المآكل والمشارب وغيرها من ضروب اللذات البدنية . واذا اعتدلت هذه القوى وكانت على حدها الاوسط وانقاد الأخريان منها إلى الاولى فيما يكون عنهما من التصرفات قامت كلها بالاغراض الشريفة التى خلق لها الإنسان ولو غلبت واحدة منهن على الاخرى وكان التصرف على خلاف ما تقتضيه النفس الملكية نشأ عن ذلك شرور الخلاف والغلب ولا ريب فى ان هذه القوى ضرورية لعيش الانسان وفلاحه ووصوله إلى الغرض المقصود منه فإذا كانت بين طرفى الافراط والتفريط وتصرفت على مقتضى معلومات النفس الناطقة جلبت الخير ودرأت الشر وكان صاحبها فاضلاً كاملاً وإن تكن الأخرى عمت الشرور وساءت الاحوال وكان المتصف بها شريراً مرذولا

واعلم ان اعتدال القوة الاولى واستعمالها في المعارف الحقة دون الباطلة ينشأ عنهُ الحكمة واعتدال الثانية وانقيادها للاولى فيما ترشحه لها فلا تهيج في غير موضع الهياج ولا تحمي اكثر ما ينبغى لها ولا تخمد في موضع هياجها فتترك حماية ما تنبغى حمايته ينشأ عنهُ الشجاعة

واعتدال القوة الثالثة وانقيادها للأولى فيما تنبه لها فلا تنهمك فى اللذات الشهوية على وفق هواها ولا ترد منها ما به قوام البدن تحصل به العفة والسخاء ويحصل عند اعتدال هذه القوى الثلاث قوة رابعة تسمى العدالة

هذه هى القوى الاربع التى اتفق علماء الاخلاق على أنها أمهات الفضائل وأصولها وما عداها فروع لها

ومن تأمل احوال كثير من الناس يرى ان منهم من تكون فيه بعض الاخلاق فطرية فإنا نرى بعضاً منهم ينتمّ ويحزن لأقل حادث وإذا أُنبئت لهُ ان هذا الحادث عادى لا يقتضى أسفاً ولا حزناً اعجزتك تسليته ومن يضحك لأقل شيء وإذا حاولت إرجاعه عن ذلك استعصى عليك امرهُ بل انهُ يصعب عليه التخلى عن ذلك.

ولذا ذهب فريق من علماء الاخلاق إلى أنها فطرية وذهب آخرون إلى أنه لا فطرى منها للإنسان وإنما ينمو فيه خلق الفضيلة باتباع وسائله من التربية والتهذيب ومصاحبة الاخيار واستعمال الروية والفكر وخلق النقيصة باتباع سبله من مصاحبة الاشرار وإهمال التربية والتهذيب والانقياد للنفس الشهوية أو الغضبية

وقال غيرهم ليس من الاخلاق الخصيصة بالانسان ما هو طبعي بل إنه قابل لان يتغير من خلق إلى آخر باستعمال وسائل ذلك الخلق الذى ينتقل اليه سواء أكان هذا التغير سريعاً أم بطيئاً فإنا نرى الانسان في دور طفوليته قد يكون له ميل إلى خلق الكرم مثلاً وتتحقق ذلك منه تحققاً لا لبس فيه فإن الاطفال لم يصلوا بعد إلى ادراك ان هذا الخلق ممدوح أو مذموم حتى يظهروا بالأول دون الثاني كما هو شأن الكبار الذين عقلوا ذلك ومثل هذا تكون تنمية الخلق الذى فيه مبدأ الميل إليه سريعة جداً . وأن الخلق الذى ليس فيه ميل إليه إذا ترك وشأنه حتى كبر رسخ وتأصل واصبحت زحزحته عنه بطيئة تحتاج إلى كثير من العلاج والقول بأن الاخلاق طبيعة لا تتغير مخالف للمشاهد ومعطل لما امرنا به من التربية والتهذيب ومناقض لما درج عليه الناس من الحث على الاخذ بوسائل السعادة والرقي هذا ولا ينكر الخلق الكسبي إلا من سفه نفسه ألم تر ان النفوس تتغير من حال إلى حال ومن صفات إلى صفات فلا غرو إذا تغيرت اخلاقها بمرور الأيام والأعوام على اننا لا ننكر الخلق الفطرى أيضاً كحرص الانسان على البقاء مع حب التملك والحيازة . فالخلاصة أن الخلق قسمان فطرى وكسبي وهما في كل نفس والكسبي هو موطن عناية المربين والهداة الراشدين

أن أخلاق الأمة قابلة في بعض الأحيان لتغير سريع والناس كافة يعتقدون أن هناك فرقاً كبيراً وبوناً شاسعاً بين صفات المصرى في عهد الاحتلال وصفاته في عهد الاستقلال وكذلك بين صفات التركي في عهد الدولة العثمانية وصفاته في عهد الجمهورية التركية وما العهدان ببعيدين عنا

بل أن الشخص الواحد تختلف اخلاقه في عهدين متناقضين فنيرون الروماني كان مثال العدل في أوائل حكمه كما كان مثال الظلم في أواخر حكمه كما ينبئنا بذلك التاريخ ولتوضيح أسباب هذه التغيرات ينبغي أن نوقف القراء على ان النوع النفسي يتركب كالنوع الجثماني من صفات اساسية ثابتة قليلة العدد وأن بجانب هذه الصفات صفات أخرى ثانوية متغيرة وقابلة للتحول . ألا ترى الزهر يأخذ ألواناً متنوعة بصبغ

البستاني كالتطعيم أو الصباغة حتى تغيب حقيقتهُ عن الساذج والزهر لم يتغير من حيث صفاته الاولية وانما كان التغير في صفاته الثانوية ولا تزال صفاته الاولى ميالة على الدوام الى الظهور في كل نسل جديد رغم جميع الحيل التي يعالج بها النوع. كذلك للمزاج العقلي صفات أساسية ثابتة كصفات الانواع الجسمية وله أيضاً صفات ثانوية تتغير بالسهولة وهذه الأخيرة هي التي تتأثر بالبيئة والحوادث والتربية الى غير ذلك من المؤثرات

ولا يعزب عنا أمر جلل في هذا الموضوع ذلك أن للمزاج العقلي مقدورات وان شئت فقل قابليات خلقية لا تظهر في كثير من الأوقات لعدم ملاءمة الأحوال لظهورها فاذا صلحت تلك الأحوال ظهرت من ورائها حياة جديدة في الأمة لكنها غرضية لا تلبث أمداً بعيداً كالأحوال التي نشاهدها في أيام المحن الدستورية والسياسة العويصة من الاضطرابات والانقلابات كما حدث في مصر وبلاد الروس والترك والفرس في هذا العهد وفي فرنسا وايطاليا والمانيا واليونان في العهود الماضية فقد شوهد كل أمة من أولئك الأمم أنها ظهرت بمظهر جديد يتراءى أنهُ ناشيء من تغير عظيم في أخلاقها وافكارها وحركتها الا انهُ تغير عرضي لا يلبث ان يزول ويتحول الاضطراب الى سكون وأمن والخوف الى اطمئنان وهناءة ويكون اضطراب الأمة حينئذٍ كاضطراب وجه البحيرة الهادئة من العاصفة لا يلبث وقتاً كبيراً

والقابليات التي ظهرت في بعض الأزمان بالحوادث الاستثنائية هي التي مثلت لنا الابطال الذين لعبوا دوراً مشهودة في الانقلابات السياسية والدينية فكانوا في أعيننا كأنهم خلقوا من طينة غير طينتنا او آدم غير آدمنا وما كانوا الا رجالاً مثلنا صادفتهم حوادث حركت فيهم تلك القابليات التي اشتركنا نحن معهم فيها مثال اولئك الأبطال سعد باشا زغلول في مصر ومصطفى كمال باشا في الاناضول وذي فاليرا في ارلنده وغاندي في الهند في هذا العصر ومحمد علي باشا في مصر ونابليون بونابرت في فرنسا وجاريبالدي في ايطاليا وبسمرك في المانيا وبطرس الأكبر في الروسيا والسلطان محمود في الترك في العصور الماضية ومثل ابطال الديانات موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام في مشارق الارض ومغاربها فانهم غيروا في اخلاق الناس وأفكارهم ونظامهم ونهضوا بها نهوضاً لا ترى لهُ مثالاً في التاريخ ولا تزال اصلاحاتهم أبقى على الزمن الباقي من الزمن

كذلك قام اصلاح ديني اسلامي أساسهُ القرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح

في القرن المنصرم على يد الوهابيين في نجد الا أن يد السياسة عبثت به وما برح في أخذ ورد وجزر ومد ولا علم لنا بالغد

كما كان اصلاح ديني مسيحي على يد لوثر زعيم البروتستنتيين أساسه العمل بالكتاب المقدس وابطال البدع والخرافات وصادف هذا الاصلاح في نشأته اضطهادات ومحاربات حتى قويت شوكته واستقرت شرعته

وللإصلاح الديني اثر عظيم في الاخلاق كما لا يخفى على القراء

ولولا حوادث الزمان لوجدنا أبطال السياسة والديانة مطمئنين دائبين في صناعاتهم او تجاراتهم أو زراعاتهم او الحرف التي كانوا بها يحترفون من قبل ولكن حوادث خارقة للعادة أثارت في أنحائهم بعض الخلايا التي كانت هادئة في الزمان العادي فبرزوا في العالم بتلك الصور الهائلة التي يقصر سلفهم عن إدراكها كما يعجب الخلف من آثارها

لا تتغير أخلاق الامة الاساسية حتى في أشد أوقات الاضطراب والمحن التي تظهر فيها الامة بمظهر التغير التام في شخصيتها وغاية الامر أن تلك الاخلاق تبدو في ثوب غير ثوبها الاول فلما أراد اهل الثورة ان ينقضوا على طريقة الحكم السابق وضعوا للامة نظاماً قبضت فيه اليد العليا على جميع اختصاصات الحاكمين فكان روح نظامهم هنا متفقاً مع روح النظام الاستبدادي المبني على الاثرة وذلك كحالة الامة المصرية في أيام الثورة العرابية والامة الروسية في عهد الثورة البلشفية فكانت خزانة الحكم في مصر في يد عرابي كما كانت في الروسيا في يد لينين وبين الثورتين اربعون سنة وان كانت ثورة مصر أصابت عين الفشل وثورة روسيا أصابت عين النجاح

والاخلاق ترمي الى معرفة حقائق النفس واستخدامها لنفعها ومن الواضح انه اذا كان الكمال الخلقي مثل ما هو للطبيعة والحياة البشرية بأجلى مظاهره فلا ريب أن القاعدة الاساسية التي لا مفرّ منها لتحقيق ذلك الكمال أن يكون الانسان محترماً قبل كل شيء في حياته وفي طبيعته ولذلك وضعت القاعدتان الآتيتان

(١) لا تفعل ما تأباه كرامتك

(٢) لا تفعل ما يضاد حقوق غيرك

ولما كان لكل موجود مصدر اشتقاق فعلم الاخلاق مشتق من هذين المصدرين أو تين القاعدتين وغاية علم الاخلاق تمهيد الطريق الى تحقيقهما

وليس الغرض من فلسفة الاخلاق معرفة كيف يعيش الانسان بل معرفة كيف يجب ان يعيش . والصدق والاستقامة والصبر والعزيمة جواهر الفضائل وأسس الحياة السعيدة

يروى انهُ لما وقع اسطفانوس الكولونّ في يد خصومه سألوهُ على سبيل التهكم أين حصنك المنيع فوضع يده على قلبه وقال ههنا وخير الاوقات لظهور الشجاعة أوقات الشدة والضيق

وفي الخطوب تظهر الجواهر ما غلب الايام الاّ الصابر

والاخلاق متوقفة على العادات حتى قال ميتناسيوكل ما في الانسان ناتج من العادة حتى الفضيلة نفسها ولا شيء افتك بأخلاق الامة من الاستبداد

سيقول السفهاء من الناس ان للاستبداد حسنات مفقودة في الادارة الحرّة ويقرونها فيقولون الاستبداد يلين العرائك ويرقق الطباع ويهذب النفوس والحق ان ذلك يحصل في الناس غير فقدان الشجاعة والحمية وعزة النفس ويقولون ان الاستبداد يعلم الطاعة والانقياد والحق أن الطاعة تكون في اولئك الناس صادرة عن خوف وجبن لا عن إرادة واختيار وميل الى النظام ويقولون هو يربي النفوس على احترام الكبير وتوقيره ثم هو يربي ذلك الاحترام ولكن مع الكراهة والبغض لا مع الميل والحب

ويقولون ان الاستبداد يقلل الفسق والفجور ونقول نعم ولكن مع الفقر والعجز لا مع العفة والدين ويقولون هو يقلل الجرائم والحق أنهُ يخفيها فيقل إحصاؤها لا وجودها. وأقل ما يؤثر الاستبداد في اخلاق الناس انهُ يعود الاخيار منهم النفاق والرياء ولا حبذا هما ويعين الاشرار على طغيانهم لانهم يكونون آمنين على نفوسهم حتى من الانتقاد والفضيحة لان اكثر اعمالهم تبقى مستورة يلقى عليها الاستبداد ستور الخوف من عواقب الشهادة على الفجّار خشية بطشهم بالشاهدين ولو بعد حين والحرية خير مساعد على نضج الفضائل في الامة. وعلى قدر نصيب الامة من الحرية تنال نصيبها من الفضائل

وإنما الامم الاخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

عبد الرحيم محمود

المدرس بمدرسة فؤاد الاول الثانوية والمعلمين الثانوية